المهمة الخطرة

بعد وجبة عشاء مكونة من مكرونة وقليل من اللحم المستورد وعلبة العصير .. كلفت أنا ورفيقي المستجد بمهمة استطلاعية سيرًا على الأقدام. كل واحد منا يرتدي بزته العسكرية وفوق رأسه خوذته الحديدية، وبيده سلاحه ومعنا جالون الماء الصغير، كنا نسب ونلعن حظنا السيء التعس، الذي رمى بنا في هذه القرية الحدودية، التي يكثر فيها التهريب والهجرة غير الشرعية. أحكمنا قبضاتنا على سلاحنا .. شرعنا في السير كأشباح في الظلام .. لا شيء يبدد هذه العتمة والرتابة والجو الموحش، سوى تجاذب أطراف الحديث مع رفيقي.

قصصت عليه حكايتي مع فتاتي الحسناء، التي ودعتها هناك في المدينة الغافية على ساحل البحر، وكيف بالأمس أهدتني وشاحها الوردي المعطر، وهي تقول لي:

ـ خذ حذرك من الأفاعي والعقارب فهي كثيرة في الصحراء..

كما سردت لرفيقي قصة أبي المزهو بي دائمًا، والذي عندما يراني يفاخر بي بين أقرانه قائلًا:

ـ هذا هو أبني (الجمل) كما ترون! كان يلقبني بالجمل لطول قامتي..

لا شيء سوى هذه الصحراء المترامية الأطراف، والليل الخريفي يتمطى بارتخاء، ونباح الكلاب وأضواء سيارات المهربين، مددت يدي إلى جالون الماء، وتجرعت منه عدة جرعات .. بعد أكثر من ساعة ونحن نسير .. أحسست أننا تقدمنا أكثر من قبل .. شجيرات المثنان الكبيرة في هذه الأراضي المهجورة. أشعلت المصباح الصغير الذي كان بحوزتي، دبت القشعريرة في جسدي، هتفت برفيقي في ذعر ورعب، عندما لمحت تلك الأقراص الدائرية قلتُ له:

ـ لقد وقعنا يا رفيقي في حقل ألغام. تساءل في جدية وقلق:

ـ وما هو العمل إذن؟

طلبت منه ألا يتقدم خطوة واحدة، وأن يحفر تحته حفرة، ويجلس مكانه امتثل هو لذلك وفعل ما أمرته به .. بينما نزعت حربة البندقية من الغمد .. وشرعت أحفر بها تحتي.

جلسنا وهضاب من الخوف تخيم علينا .. كل واحد منا لا يدري ما يخبئه له القدر وسلاحه إلى جواره .. الليل يمضي بطيئًا ثقيلًا .. الماء يكاد ينفد بعد ساعات ترامى إلى أسماعنا هدير سيارة كانت تقترب منا ..

وضع صديقي أصبعه في فمه وشرع يصفر لها، لعل ذلك المهرب يسمعه .. ثم أخذت بندقيتي وصوبت فوهتها إلى أعلى، وأطلقت عدة رصاصات في الهواء، لكن هيهات أن يفطن لنا ذلك المهرب، أو ربما فطن لنا فاستدار بسيارته إلى الخلف خائفًا مذعورًا، واختفى في جنح الظلام ...

بدأ هدير السيارة يخفت شيئًا فشيئًا حتى تلاشى تمامًا ..

الموت كامن على بعد خطوات منا .. برز فجأة شعور بالخوف والفزع. أسنموت وسط حقل الألغام هذا؟

أحسست بالبرد القارس، تحسست حذائي الأيسر ونزعته ووضعته تحتي في تلك الحفرة ما إن مددت رجلي على الأرض إلى الإمام، حتى دوى انفجار مروع هائل، حمل معه الغبار والتراب، لم نفطن لأنفسنا إلا بعد برهة، حيث أحسست بحرارة في جسدي وطنين لا يفارق أذني، لم أعد أرى رفيقي، سائل ساخن ينحدر على خدي من إحدى عيني، وكأنها قد خرجت من مكانها، ألم حاد في إحدى رجلي، بعد أن صحونا من الإغماء غمغم رفيقي فقد كان على قيد الحياة .. لكنه هو الآخر لم يعد يرى شيئًا ما هذا الكابوس الفظيع. هل أنا في حلم أم ماذا؟

بعد ساعة استرجعت أنفاسي، أحسست بآلام حادة وفظيعة في ساقي الأيسر، والذي كان قد بتر، ورفيقي هو الآخر يغرق في دمه، أخذنا نقاوم بصعوبة بالغة الألم والظمأ .. يصل إلى أسماعنا نباح الكلاب بين الحين والآخر، وما أن أحسسنا بحرارة الشمس تطل علينا حتى تناهى إلى

أسماعنا هدير سيارة، أخذت تقترب منا بعد ليلة طويلة من العذاب وسط الجحيم وها هي أصوات وجموع بشرية تقترب منا.